

تجليات المثاقفة وآلياتها في مشروع طه حسين

The Manifestations of Cultural Enlightenment and Its Mechanisms in Taha Hussein's Project

أ. العزوني فتيحة* - Lazouni.fatiha

جامعة هران 1 / الجزائر

Lazouni.fatiha@univ-oran.dz

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/05/13

تاريخ الاستلام: 2025/03/18

ملخص:

يقترن مفهوم المثاقفة لدى طه حسين بما يؤديه المثقف من تغيير في البنية السوسيوثقافية لمجتمعه. ومن مقاصد هذا المشروع جعل المجتمع العربي ينخرط في نسق الحداثة. و لن يتحقق ذلك -من منظوره- إلا بضرورة تطوير الفكر و تجديده والاهتمام بالتعليم ونشر الوعي الثقافي. وهنا يحضر دور المثقف الذي يفترض أن تحتضنه بيئة تمجد حرية التفكير وتؤمله لممارسة النقد البناء لمساءلة الإرث الحضاري بأسئلة جريئة يسعى من خلالها إلى تجديد الفكر والقيم. من أهم آليات هذا المشروع، الترجمة لأنها تساهم في تبادل المعرفة والثقافة بين مختلف الثقافات واللغات، مما يؤدي إلى تعزيز التواصل العابر للثقافات. ثم تحديث التعليم بحيث يصبح مواكبا لمتطلبات العصر الحديث. ثم تناول قضايا المجتمع والثقافة العربية بشكل نقدي بناء. ومنه المساهمة في الحوار الثقافي العالمي. الكلمات المفتاحية: المثاقفة - طه حسين - الترجمة - الإرث الحضاري - النقد

Abstract:

Taha Hussein's concept of cultural enlightenment is associated with the transformative role intellectuals play in the socio-cultural structure of their society. One of the aims of this project is to engage the Arab community in the pattern of modernity. According to his perspective, this can only be achieved through the necessity of developing and renewing thinking, as well as emphasizing education and promoting cultural awareness. Here, the role of the intellectual is crucial, as they are expected to be embraced by an environment that celebrates freedom of thought and enables them to engage in constructive criticism to question the cultural heritage with bold questions, aiming to renew thought and values.

Among the most important mechanisms of this project is translation, as it contributes to the exchange of knowledge and culture between different cultures and languages, leading to the enhancement of cross-cultural communication. Additionally, updating education to meet the requirements of the modern age is crucial. Addressing issues of Arab society and culture in a

constructive critical manner is also essential. Moreover, contributing to global cultural dialogue is imperative.

Keywords: Intellectualism- Taha Hussein –Translation- Cultural Heritage -Criticism-

1. مقدمة:

المثاقفة فعل إنساني إيجابي طوعي، وهي قديمة قدم الإنسان. سجلت حضورها عبر التعااقبية التاريخية. وتجلت في صور مختلفة ووفق منحنيات متباينة. وجودها ارتقن بدءا بالتواصل الإنساني بعضه ببعض. والرغبة في المشاركة على اعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي، تلحّ عليه مسألة التواصل إلحاحا قويا. وأن فكرة ديمومة الانطواء على الذات لا يمكنها أن تتحقق في المطلق، إذ لا فائدة مرجوة من التخوف الدائم من الآخر. لأن تواصل الأنا مع الآخر سيتحقق في التاريخ بكيفية من الكيفيات. وتلك مسألة حتمية خدمت مساعي الإنسان الحياتية وهيأته للانفلات من الوحشية، صوب الاستئناس بالآخر للتشارك والتعمير والبناء معا. وبالتالي التأسيس المبدئي لفكرة التحضر البشري. وتجلت هذه الصورة وبشكل أقوى في ظل وسيط طبيعي يتحدّد في المجاورة الجغرافية. كما قد يصل المدّ التواصل إلى أبعد من الحدود الجغرافية.

وتاريخيا تنتفي فكرة صفاء نوع الثقافة ضمن أطر جغرافية معينة، لأن ذلك سيؤول بالشعوب نحو الفناء. و الواقع يثبت على سبيل اليقين أن تنوّع الثقافات البشرية وتعدّد نماذجها، عامل مهم يوحى بفكرة الاستلهام من الغير، بما يخدم المصلحة العامة ويلقّح المخزون القيمي الأخلاقي والمعرفي المحلي. والشعوب المستكفية بذاتها وبرصيدا وموروثها المحلي فقط، شعوب تأبى التجديد، ومصيرها آيل نحو الزوال. فرفض الإفادة من خلاصة العقل البشري، انطواء وتقوقع يحوّل دون بقاء ونماء الشعوب.

قدّم المسلمون العرب قديما صورة راقية للمثاقفة كشكل من أشكال التفاعل مع مختلف الحضارات والشعوب. وأسّسوا لهم منهجا يقوم على الوعي بالآخر. وحدّدوا مسالك المثاقفة عبر العديد من القنوات المعرفية كالاهتمام بالترجمة، والانفتاح على الثقافات... ونهّتم في هذا المقال بحركة المثاقفة العربية في العالم العربي مع بدايات القرن العشرين، والتي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتطورات التاريخية والاجتماعية. وسنتخذ من نموذج الأديب والناقد المصري طه حسين عيّنة عملية للمعاينة والتوصيف، بما يخدم رؤية البحث وتوجهه النقدي. وانجذابنا نحو هذه التجربة جاء نتيجة لأسباب نذكر منها:

عقدتها الصلة بين ثقافات عديدة، وتفعيلها لحركة المثاقفة، حيث عكف صاحبها على ترجمة الآثار الفكرية والأدبية إلى العربية، فضلا عن مواقفه الجريئة في عرضه للعقل العربي على النقد والمساءلة في إطار مشروع نهضوي في مطلع القرن العشرين.

لقد أسّس هذا الناقد مشروعه النقدي العربي من خلال انفتاحه على الإرث الغربي وعلى المقولات الفلسفية المكوّنة لخطاباته. منطلقا من فكرة راسخة، هي أن لا مناص من استيعاب الحضارة اليونانية بوجه خاص، لأنها تمثّل من منظوره أخصب حياة عرفها الإنسان في العالم القديم، بفهمها وتحليلها.

صياغة الإشكالية و تأطير الرؤية :

نفعل في هذه المداخلة العلمية عددا من الإشكالات التي نراها ممثلة للسجل المعرفي الذي دار بين النخبة الحديثة في عصر النهضة العربية ..ويستوقفنا نموذج الثقافة النقدية لدى الناقد و الأديب المصري طه حسين .واختيارنا لهذا المثقف العربي يأتي من باب أنه أكثر من يمثل سياق الثقافة الأدبية النقدية . حيث طرح العديد من الإشكاليات النقدية المتعلقة بهذا السياق . وسعى لتفكيك بنياتها والوقوف على مكوناتها متمثلا لأدوات النموذج النقدي الغربي في التحليل والفهم. كما عرّف القارئ العربي بالآداب العالمية وعيون الأدب اليوناني من خلال ترجمته لها . وهو مامهد لاستكشاف ألوان أدبية جديدة ولقّح الأدب العربي بطاقات فنية .

وحتى لا نعرض تصورا مبتورا ورؤية مجتزأة لموضوعنا استحسنا افتتاح مداخلتنا بمهاد نظري يعنى بتحديد مفهوم الثقافة وشروطه وضوابطه . ثم نعين مفعوله في تطور الحضارات. بعدها نسعى إلى قياس فاعليته في البيئة العربية الإسلامية . ثم نعرض نحو عصر النهضة العربية لجس نبض الثقافة النقدية في ظل المؤثرات الخارجية بحكم العلاقات المجتمعية الحديثة. ونقف عند أهم الأسئلة التي صيغت ضمن مشروع طه حسين مستعرضين إجاباته دون الخروج عن الحدود المنهجية للموضوع . ونذكر بأننا سنتجاوز التعرض للمهارات والالتزامات التي نُعت بها طه حسين لأن ذلك لن يخدم منحنا العلمي .

2. مهاد نظري :

إن التفاعل الثقافي يظل العامل الرئيس لنهوض الحضارات، وعليه يصبح فعل التثاقف خيارا ملحا لابتكار قيم جديدة ورسم آفاق مستحدثة من شأنها الارتقاء بالشعوب . وإذا جئنا لتحديد مجالات الثقافة عبر مختلف الحضارات وجدناها تشمل عالم الأفكار والمعارف والعلوم والخبرات والعادات والتقاليد والأخلاق التي تتحقق بفعل المراكمة والمشاركة. مع الإقرار بمسألة التفاوت في القدرة على صقل التجارب والمكتسبات، مما يوسع دوائر المنافسة ومنجزاتها، فتغتني التجربة الإنسانية وتمتد في حدود المقاصد المبتغاة من التثاقف الذي تراعى فيه المصلحة الخاصة .

على مستوى التنظير ظهر مفهوم الثقافة أو التثاقف Acculturation مع عالم الأناسة الأمريكي جون ويسلي John Wesley Powell عام 1880م . ويشمل هذا المفهوم "مجموع الظواهر الناتجة عن التواصل الدائم المباشر بين شعوب تنتمي إلى ثقافات مختلفة . وما يترتب عن هذا التواصل من تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية عند هذه الشعوب ، بحسب مستويات التأثير والتأثر والتمثل والاستيعاب والأخذ والبذل والتعديل والتصحيح .وما إلى ذلك"¹ . ونستحضر في هذا السياق تعريف الثقافة للباحث الاجتماعي الفرنسي ميشيل دوكوستر Michel De Coster يقول : هي " مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير والتأثر والاستيراد والحوار والرفض والتمثل وغير ذلك، مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات؛ وما يعني أن التركيبة الثقافية والمفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية"² . فالتركيز هنا

ومثلما هو واضح يكون على المشاركة الإيجابية الطوعية السلمية، وبالتالي لا علاقة للمواقفة بالإخضاع والتقليد والاستيلاء الثقافي الذي ليس سوى مصادرة وإلغاء وتحطيم وخنوع ومحو للخصوصية. فالمواقفة هي إذن عملية تبادلية قائمة على مبدأي الأخذ والعطاء.

تتفعل عملية المواقفة نتيجة حاجة الشعوب إلى التغيير والتطور. ونتيجة طموحها أيضا نحو الانخراط في الحضارة الانسانية. ونذكر في هذا المقام أن إمكانية حدوث المواقفة قد يكون بين سياقين حضاريين مختلفين. كما قد تنمو المواقفة ضمن بيئة حضارية واحدة. (مثلا بين الأقليات ضمن أطر جغرافية محددة).

وتقتضي المواقفة تعددية اللسان بوصفه الشرط الأول للمواقفة. ويتحقق في ضوءه الشرط الثاني الذي يتمثل في الترجمة، فدورها كبير لأنها القناة الوحيدة لنقل المعرفة وتمحيصها وتطوير الذات في ضوء التحولات الحضارية مع الاحتراز من الخطابات الاستعمارية التي تركز فعل الهيمنة والتبعية.

وسندخل باب العنصر الموالي من زاوية عامل المواقفة ومكوناته وشروطه ومراحل و مآلاته عبر الحضارة الإسلامية والقفزات الهامة التي أحرزتها.

3. مسألة المواقفة في التراث العربي :

تنشأ التفاعلات الثقافية وتنشط تبعاً للسياقات التي تنمو فيها. وتبعاً لعوامل التغيير وأدواته. مثل مستوى حركة التفاعلات المرتبطة بحركية الكتل المتفاعلة وطبيعة العلاقات الواصلة بينها، ومقدار حاجة كل طرف إلى الآخر، وموازين القوى بينهما ودرجة التقارب أو التنافر بين المتفاعلين. وينتج عن هذا النشاط تحورات بنيوية للثقافات، تترسخ في التمثيلات الجديدة للثقافة. ومن ثمّة تتباين الأشكال الثقافية في بيئة ما أو في زمان ما، عمّا كانت عليه من قبل وعمّا ستؤول إليه. ومثالنا الذي نسوقه في هذا المقام هو الحضارة العربية الإسلامية ومدى استيعابها لحضارات الأمم الشرقية والمتوسطية (الفارسية / اليونانية / الرومانية / الهندية ..)، وذلك لدى سيرورة إعادة بناء الإمبراطورية الإسلامية.

إن العقل العربي استلهم من هذه الروافد المعرفية. وكان ذلك سبباً رئيساً في تألقه وعلو مكانته. واتخذ له موقعا في مركز الحضارة العالمية آنذاك. ومن منجزات الحضارة العربية احتواؤها للحضارات الشرقية والمتوسطية. لقد تم تلقي الفلسفة اليونانية وتحويلها من سياقاتها الأولى صوب نسق ثقافي ينسجم مع أنسقة الثقافة العربية. على نحو ما قام به الكندي (ت: 256) والفارابي (ت: 339)، ولا يخرج مشروع ابن رشد (ت: 595) القائم على ترجمة وشرح واستيعاب أرسطو عن هذه الأطر. فما حققت الحضارة العربية من مكاسب تم استنادا للامتدادات الحضارية التي عقدتها مع غيرها من الثقافات، لوعي السلطة الحاكمة حينذاك بضرورة توافر عنصر القابلية للانخراط في الحضارة العالمية والتطلع للمعارف والعلوم. وتجلى هذا الوعي المعرفي في متون الفلسفة الإسلامية والعلوم والآداب العربية.

وتأسس هذا المشروع الفكري منذ القرن الأول الهجري لدى انفتاح خالد بن يزيد بن معاوية (ت: 90هـ) على مختلف العلوم و الثقافات الأخرى عن طريق النقل و الترجمة، فأنشأ خزائن الكتب والمكتبات .معتمدا على اليونانيين من الذين أقاموا في مصر وتفصّحوا باللغة العربية بحسب ما أخبرنا به ابن النديم في كتابه "الفهرست ". ثم تعددت فروع المشروع النهضوي ومسالكه مع الخليفة العباسي المأمون (ت: 218هـ) وغيره من الخلفاء العباسيين المحبون للعلم والأدب، والذين استجلبوا مصنّفات علماء اليونان ووظفوا طائفة من المترجمين من أمثال حنين بن اسحاق (ت: 260هـ) ويحيى بن ماسويه (ت: 243هـ) ... للتصدي للنقل المنقح والترجمة الواعية المبنية على أسس منهجية لأهم ما توصل إليه العقل البشري في المجال العلمي والفني والفكري. كما استجلبوا المخطوطات النادرة، بعد أن نقّبوا عنها ودفعوا مقابل الحصول عليها أموالا طائلة .

لقد أصبحت حركة الترجمة مسألة ملحة رعاها الحكام والخلفاء وخصصوا لها ميزانيات ضخمة لضمان استمراريتها وجودتها . وبعد أن كانت مجرد فضول تحوّلت إلى قرار سيادي. وتوجّهت توجهها حضاريا يتحرك وفق استراتيجية إيديولوجية. وأصبحت هي الجسر الأساسي الذي هياّ لنقل المعرفة والعلم إلى اللغة العربية . وصارت تقليدا علميا يسّر سبل التطور بكل مستوياته . وبالتالي الارتقاء في حضن الثقافة العقلية العالمية، من خلال نشاط بيت الحكمة ذلك الفضاء الذي شكّل ملتقى للحضارات .

انتقل العرب من مرحلة الترجمة إلى مرحلة الانتاج العلمي، فبفضل الترجمة دخل العرب المسلمون باب المشاركة في الانتاج العلمي. وظهرت حركة التأليف في شتى صنوف علوم الفلسفة والطب والمنطق والفلك... وإلى اليوم المخطوطات العربية مازال صامدة تسجل حضورها في جميع مكتبات العالم الأوربية والعربية. وقد تفوّق العرب على الرعيل اليوناني الأول حيث صوّبوا أخطاءهم وأقاموا شروحا على علومهم ورمّوا الناقص في إنتاجهم على نحو ما أقدم عليه المسلمون من أمثال العالم الموسوعي الحسن بن الهيثم (ت: 430هـ) لدى استخدامه للمنهج العلمي مثبتا أن الضوء يأتي من الجسم صوب العين وليس العكس في تصويبه لكتابات بطليموس (ت: 180م) - ذي الثقافة الاغريقية الفلكية - ، فضلا على ما قدّمه هذا العالم لعلم البصريات من خلال كتاب "علم المناظر" الذي ترجم إلى اللاتينية مع نهاية القرن الثاني عشر إلى مطلع القرن الثالث عشر الميلاديين . وأعيد طبعه عام 1572م . وقد أفاد رينيه ديكارت René (Descartes) (ت: 1650م) منه في تحديد مفهوم المكان .و العالم الألماني يوهانس كيبلر Johannes Kepler (ت: 1630م) الذي وثّق بحوثه العلمية بالعودة إلى الكتاب المذكور.³

إذن ورثت الحضارة العربية الفكر اليوناني والشرقي وصوّبته وعدلته وأعادت هيكلته في صورة ثقافية مُشرّفة تحتكم إلى العقل والوعي بالمشروع النهضوي . ثم تحوّلت بعد مرحلة نضجها إلى الممثل الوحيد للحضارة الإنسانية في القرون الوسطى. مع استحضار دور القرآن الكريم في تحريك ملكة الابداع الكامنة لدى العرب.

من مخرجات عملية التناقص التي وطّدت صلات العرب المسلمين بغيرهم من الشعوب ، إغناء اللغة العربية وتحوّلها إلى لغة مطوّعة في النحت والاشتقاق، حيث أمكنها استيعاب مختلف العلوم والمعارف الجديدة مفاهيميا

وإجرائيا ، من خلال تفعيل قنوات عدة على رأسها التعريب والترجمة . فنتج عن ذلك استحداث معان وتراكيب جديدة. ومكّن هذا التثاقف من بروز مفردات أجنبية على مستوى التوظيف مع المحافظة على جرس اللسان العربي. هذه المرونة حوّلت اللغة العربية إلى لغة عالمية تقوّمت أمامها باقي اللغات الأخرى. بل إن الأندلسيين شغفوا باللغة العربية وحذقوا اللسان العربي وأسقطوا اللاتينية .

كما نشط التأمل لدى العقل العربي ، فوّظف القياس المنطقي وتطور الجدل بفضل ترجمة الفلسفة اليونانية، وانعكس هذا المشهد الحضاري بجميع إيجابياته على الحركة النقدية التي احتضنت الفكر الاعتزالي بداية من القرن الثالث الهجري . هنالك كانت الثقافة العربية هي الغالبة وهي الأقوى حيث غلبت على الثقافة الغربية حين أذابتها في بوتقتها وأخضعها لسلطانها بمقدار الحاجة والمصلحة. دونما الإطاحة بخصوصيات الآخر المختلف.

على صعيد البحث في مسألة الفروق المورفولوجية و السمات الثقافية وآليات إنتاج المعرفة بين الشعوب خاض الجاحظ(ت:255هـ) في وقت مبكر في هذه الإشكالية. وأخضع جنسي العرب والعجم للمعانية والوصف مشيدا بالعرب، حيث أيدهم وناصرهم ورأى أنهم من أفخر الأمم، وأرفعهم شأنًا ، وينسب ذلك إلى طبيعة بلادهم. وذلك في أثناء رده على الشعوبية في كتابه : "البيان والتبيين".

كانت لفلسفة أرسطو الأثر الأكبر في تكوين العقل العربي الإسلامي⁴، فبفضل بلورة المسلمين لهذه الفلسفة أوجدوا علم الكلام، وكتبوا في الفلسفة وطوّروا البيان العربي . و إن نتاج ما أنجزه العرب هو ما كوّن العقل الأوروبي لاحقا في القرون الوسطى، حيث اتخذ العقل الأوروبي من التراكم المعرفي العربي مصدرا وأساسا لعلمه وفلسفته. وعليه فالحضارة الغربية الحديثة مدينة في نهضتها للحضارة الإسلامية ، حيث أفادت من الرصيد الحضاري العربي الإسلامي . فاستنادا على الوعي بضرورة فعل التثاقف والزامية تقاطع مصلحة الشعوب يزداد عطاء الحضارات واستمراريتها. ونمّثل لذلك بوصول فلسفة ابن رشد إلى الغرب مشروحة مُكمّلة لمشروع أرسطو. وبهذا يحقق الفكر الإنساني دورانيته باستلهاهم الفكر الغربي لهذه الفلسفة جاهزة مجددا.

إن تداول الإرث الفكري الإنساني يتركز على تفعيل المواقفة . على اعتبار أن هذا الإرث ملك للبشرية تنقّحه وتعّدله وتضيف إليه بمقدار الملكات وقدرات العقل. وهو ما يتيح تطوره وارتقاءه شريطة أن يتم ذلك في مرونة وائتلاف . مع أحقية التعديل والإضافة في الإرث المكتسب بوعي و حذر. والإقرار بالتنوع الثقافي بعيدا عن فكرة الهيمنة وإقصاء الهوية الثقافية ، بإذابتها في ثقافة المركز.

أسّس المسلمون مجد الحضارة الإسلامية عندما أخذوا بأسباب حضارة الروم والفرس. من منطق القوة، مع التنويه بأن مسألة الأخذ مختلفة في المطلق عن التقليد الذي يعني في أبسط صوره انسلاخ عن الهوية وامتنال لنموذج الآخر، يتكرس معه توصيف المغلوب أمام سلطة الغالب. وأسّس الغرب نهضتهم الغربية من خلال تمثيلهم للنموذج الفكري العربي الذي تشرب مختلف الأنسقة الحضارية . وهكذا يحقق فعل التثاقف الملكية المشتركة للمعرفة الإنسانية وذلك ما وضّحنا أعلاه .

4. النهضة العربية و سؤال المثاقفة :

مع هبوب رياح النهضة على العالم العربي، أي في العقود الأولى من القرن العشرين، انطلقت البعثات العربية نحو أوروبا عام 1926 م . وعادت معززة بثقافة نموذجية مثلتها الحضارة الغربية. أهم الأسماء المكونة للبعثة الأولى نحو أوروبا (رفاعة رافع الطهطاوي / سلامة موسى / طه حسين...). بدأت النخبة المثقفة في التأسيس لتفكير منهجي وناضج حول تلاقي الثقافات. وتوسعت مدارات الحيرة المنهجية والوعي بضرورة طرح أسئلة جريئة بخصوص المتغيرات الحضارية وروابطها التاريخية ومآلاتها المستقبلية بآليات نقدية جديدة . في هذا السياق دار في مصر سجال عميق بين النخبة النقدية اختص بطبيعة العلاقة بين الشرق والغرب. على مستويين أولهما (العلاقة الثقافية والتاريخية بين مصر وأوروبا) . وثانيهما (العلاقة الثقافية بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية) .

لقد استشعر الوعي العربي تلك الهوة العميقة بين وضع محلي عربي غارق في الجهل والظلامية ، وبين وضع أكثر تطوراً يمثل العالم الأوروبي/ الآخر . وقد واجهت النخبة الحداثية هذا الواقع الجديد بنوع من الارتباك الوجداني اتجه التكتل الغربي ، الذي أصبح من جهة يمثل أرقى صور التمدن. ومن جهة أخرى هو صورة مثّلت وحشية السياسة الاستعمارية التي أبداها الغرب إزاء الأمصار العربية المستضعفة . من هنا انقسمت هذه النخبة على نفسها قسمين: طرف قوى انجذابه نحو الأصول واحتّمى بالهوية العربية الإسلامية، و سخر لها سبل الحماية والتحصين من مدّ الفكر الغربي المتحرر . وطرف ثان شغف بالتطلع إلى كل ماهو غربي وافد. وسارع نحو تقوية أواصر العلاقات معه . وأصبح يرى في النموذج الغربي الحصن بالعقل ، المنقذ الوحيد من التقاليد البالية والجذب والظلامية التي عاشها المسلمون في العهد الموصوف بالانغلاق، وهو عهد الدولة العثمانية . وقد استدعى هذا السجال تحريك أسئلة من قبيل الانتماء التاريخي والهوية و التراث والحداثة والأصالة والمعاصرة

تعلّت أصوات النخبة الداعية إلى الانفتاح الثقافي على أوروبا لاستلهاهم أبجديات أسرار التقدم. فاجتهد طه حسين (1889-1973)، وغيره من المثقفين العرب من أمثال سلامة موسى، وأمين محمود العالم... في وضع الثقافة العربية ضمن مركز العالمية التي لا تعترف إلا بالعقل ومداراته ، بعيدا عن سلطة الهيمنة التقليدية التي من منظورهم كبّلت أفقهم . فطرح تصوره للمثاقفة والتثاقف باعتباره السبيل الوحيد حينئذ للمعرفة التجديدية ، إذ لا سبيل إلى التطور مع إعادة إنتاج نفس مخرجات المؤسسات الضاغطة ، بل ينبغي تكريس فعل النقد العميق لهذه المؤسسات بما تستوعبه من موروثات مع الحدّ من سلطتها بإعادة النظر في طروحاتها المتهالكة. والحقيقة أن العديد من الأصوات النقدية واكبت مشروع طه حسين العقلاني، لكنها ما فتئت تتراجع عن أطروحاتها الجريئة لدى اصطدامها بالمؤسسات الضاغطة . فتخلت شيئا فشيئا عما كانت تناضل من أجله، لعلها بسلطة التراث القوية. وتعذر عليها إمكانية مناقشة أطروحاته. فأخفقت في إنتاج نموذجها النقدي العربي. وكان التراث الحصن الذي تم الاحتماؤه في ظله .

في ظل هذه البيئة الحيوية تبلورت حركة ثقافية شاركت فيها أقلام نخوية وبرزت اتجاهات وتيارات تغذت من معارك ثقافية دارت بين العقاد وطه حسين ومحمود أمين العالم ولطفي السيد وسلامة موسى .. هذه الأجواء رغم تعقيداتها وصراعاتها الفكرية مكّنت النخبة من الاستفادة من الثقافة الغربية، حيث أعادت في ظل ذلك تشييد أطر جديدة للنقد العربي مع وعي المنخرطين في هذه الحركة بضرورة الاحتراز من فكر الآخر.

5. سؤال المثاقفة في مشروع طه حسين النقدي :

نعود إلى الناقد طه حسين لنعاين المدى المعرفي لفكره العقلاني الداعي للمثاقفة مع الآخر . ونقدم قراءة لمشروعه النقدي الذي انخرط به في نقد البنية الفكرية المنتجة للمعرفة بتعدد أقطابها باعتبارها المسؤولة عن وضع الثقافة العربية .

لقد طمح طه حسين إلى تشييد تقاليد جديدة للتأسيس لوعي جديد يقرأ الذات والتاريخ والموروثات بجرأة بعيدا عن المسلمات ، وذلك بعد أن لاحظ خمول المؤسسة الثقافية وفشلها في مواكبة المتغيرات الفكرية، لأنها ظلت حبيسة الأطر الكلاسيكية، وإنتاجها مستمد من المؤسسة الدينية والثقافية والسياسية. في مقابل تحقيق حركة انفلات من هذه الأطر نحو مركز المعرفة الإنسانية بالإسهام في المشروع النقدي العالمي. دون المساس بالهوية. ونستشف ذلك من خلال احتفاظه بأساسية اللغة العربية بوصفها إرثا ثقافيا، فهي المادة الحاضنة والحاملة للحضارة العربية. يفكر داخل أطرها ويكتب بأبجدياتها . وعليه ينبغي الفصل في هذه الحالة مابين وضعيتين مختلفتين ، إذ نقد الموروث الثقافي لا يعني من منظور طه حسين معاداته وقطع الصلات معه في المطلق. مادامت اللغة العربية حاضرة بوصفها أداة للمعرفة، فضلا عن كونه ترأس مجمع اللغة العربية، وهو الذي أثنى على منجزات الخليفة "المأمون" الراعي الرسمي لمشروع الترجمة في التاريخ الإسلامي. وحامل لواء المثاقفة في أبهى صورها .وهو الذي دافع عن الهوية المصرية والعروبة والقيم الإسلامية . وما كان يعجز طه حسين التفكير والتدريج بغير اللغة العربية وهو الذي قرأ الفلسفة والأدب باللغة الفرنسية. وترجم إلى العربية نفائس الأدب الغربي.

ابتداء تاطر فكر طه حسين في المؤسسة الدينية "الأزهر" . فيها تلقى علوم النحو والفقه والبلاغة وانفتح على فكر محمد عبده. .. ومع افتتاح الجامعة المصرية عام 1908، تعرّف على أساتذتها المستشرقين . وهنا سرعان ما تموقف من الأسلوب التعليمي للمؤسسة الأزهرية ، ومن حالة الجمود في برامجها التعليمية. لأنها في نظره تعتمد أسلوب التلقين والتقليد و تغييب العقل. واكتسب هذه الشخصية المختلفة بعد عام 1914 أي بعد أن أوفدته الجامعة المصرية إلى مونبلييه بفرنسا، لمتابعة الدراسة . فدرس في جامعتها اللغة الفرنسية وآدابها، وعلم النفس والتاريخ الحديث وعلم الاجتماع واكتسب عددا من اللغات ...ولدى عودته إلى مصر أعلن بشكل صريح عن عقم مناهج البحث والتدريس في مصر مقابلا بين نتائج التعليم فيها وبين نتائج التعليم في فرنسا .

للتأسيس لمنطقه الجديد خصّب طه حسين مرجعياته بمصادر غربية وتبنى أطروحاتها بهدف تأسيس تاريخ للأدب العربي الحديث وانعاشه بما استحدث من أجناس أدبية ، مستندا إلى فعل الترجمة التي استعان بها لتحقيق هذا التصوّر . كما تطلّع إلى تحرير التعليم من تلك البرامج القتالة بعد اصطدامه المبكر بالكثير من المفارقات جعلته يعيد النظر في عدد من المسلمات الثقافية .

من مقاصد مشروع طه حسين الثقافي الخروج من مرحلة السذاجة المجدولة على الفطرة، صوب الإقرار بسلطان العقل الكفيل بالنقد والقراءة والتحليل ، لبلوغ غاية فك العزلة على العقل العربي ، وتثوير أسئلة ثقافية وتفعيلها من منظور تاريخي . ذاك هو السبيل الوحيد للنهضة العربية . هذه الثقافة التي عقدها مع الفكر الغربي أهلتها لتجديد السؤال وتنويعه . فتوجهت استفهاماته صوب تفكيك المسلمات ضمن أطر نظرية غربية للوقوف على بنيتها وتكوينها . جرأة الطرح هذه كان نتيجتها أن قُذِفَ به خارج أسوار المؤسسة المهيمنة، بتفرعاتها السياسية والدينية والثقافية، بحجة تنكّره للتراث و قذف المقدسات وضرب المسلمات . وحاد إثر ذلك الحراك الذي انعش الحوارية الفكرية ، من منحاه الثقافي نحو المنحى الإيديولوجي .

صدر لطه حسين سنة 1938 م كتاب موسوم : "مستقبل الثقافة في مصر" ، طرح فيه في فصل " العقل المصري والعقل اليوناني وتأثر كلٍّ منهما بالآخر" ⁵ . مجموعة من القضايا رأى أنها كفيلة بنقل العرب من مرحلة الانحطاط إلى مرحلة التمدن والتحضّر . ومن أجراً الأطروحات الواردة في هذا الفصل فكرة انتماء المصريين والأوروبيين إلى منبع ثقافي متوسطي واحد بوضعه لمصر ضمن سياق أوربي بحث ، استنادا إلى معطيات تاريخية فكرية تتمنّ الأواصر بين اليونان ومصر (فتح الإسكندر الأكبر لمصر عام 332 ق.م. وتحولها إلى دولة يونانية. أيضا التركيز على الدور الريادي الذي أدته الاسكندرية في هذه المرحلة)، قاطعا الصلة في الوقت نفسه بين مصر والشرق الأقصى (الصين والهند واليابان...) .

إن العلاقة التي تجمع بين الشرق والغرب -من منظور طه حسين- أعمق من التاريخ الحديث، معترفا أن الشرق العربي الأدنى يعيش حالة خمول ، ويحتاج إلى تمثّل نموذج غربي كي يؤهله للانخراط ضمن الثقافة الغربية . هذه الثقافة يراها طه حسين شديدة الترابط تاريخيا بمصر منذ الاسكندر المقدوني . ودعما لهذا التصور توخى طه حسين في كتابه المذكور البرهنة على العلاقة الوطيدة بين العقل المصري والعقل اليوناني وعلى قوة الوشائج بينهما قديما . من هذا الباب يطرح طه حسين فكرة المجاورة التاريخية الثقافية التي لا تخضع للجوار الطبيعي الجغرافي ، فمصر وإن كان انتماءها الجغرافي شرقي فإن انتماءها الحضاري قديما إغريقي وحاليا أوربي. أي أن العصر الحديث جاء ليعيد ربط الأواصر مجددا بعد أن حالت بين الثقافتين ظروف تاريخية حدّدها في تمّدّد ملك العثمانيين نحو البلاد العربية . و لا سيما أمام اعتقاد طه حسين الراسخ بتسبب الحكم العثماني في تعطيل سير الحركة العقلية في مصر والعالم الاسلامي مدة طويلة. ولو كان الأمر غير ذلك لأوجد العقل المصري ومن بعده العربي وضعاً منسجما مع العقل الأوربي حديثا. ولم تنهض مصر من سباتها إلا بعد الصدمة التي تلقته من جراء حملة نابليون بونابارت (ت:1821م).

إن مكونات العقل المصري في تصور -طه حسين- مستمدة من آثار اليونان الأدبية والفلسفية ، وآثار الرومان في التنظيم السياسي والقانوني و العسكري ، وإلى الحضارة الإسلامية ومن قبلها الحضارة الفرعونية .. هي مزيج من الثقافات المتفاعلة في انسجام . ويمضي للتدليل على فكرته بالتذكير بتلك المرونة التي أبدتها نهضة مصر في تمثلها للنموذج الغربي ماديا ومعنويا، مركزا على فعل المواقفة التاريخي القائم على التبادل والمشاركة في إنتاج المعرفة بين العقل المصري والعقل اليوناني في العصور القديمة. بذلك تعود مصر لإحياء علاقة ثقافت كانت قائمة تاريخيا ثم انقطعت وعادت لتألف. فمصر و أوروبا وفق هذا التصور ليسا غربيين تاريخيا، لذا فعُملُ الثقافت سينتعث كلما وجد الظرف مناسبا . هذه الأطروحة المثيرة للجدل أي فكرة الأخذ التي شرّعها طه حسين بدعوى مشاركة مصر في صنع الثقافة الإنسانية قديما وهي الأولى باستثمارها حديثا، نشطت جبهة المعارضة التي رأت في فكرة الأخذ حالة من حالات الانكسار على خلاف منطق القوة الذي ميّز الحضارة العربية الإسلامية، لدى أخذها بالنموذج اليوناني والفارسي .

تصور أن اعتماد طه حسين مبدأ الثقافت مع الثقافة الأوروبية، وإباحته لمسألة الأخذ من هذه الثقافة ، جاء من موقع الثقة بالنفس والفخر بمنجزات التراث الإسلامي ومقابلته .. مع تشديده على مسألة إعمال العقل فيما وصلنا من موروث. فالأخذ به لا يكون إلا بعد البحث والتحري لكشف المغالطات والمتناقضات في الأفكار والتصورات. إن التسارع العلمي كان يقتضي مدّ الجسور مع الفكر العالمي في صيغته التاريخية والحديثة. و القطيعة مع الآخر ورفض أطروحاته دون الوعي بها وتحليلها، فكرة ظالمة تؤسس لعزلة الخطاب العربي وتكرس لإقصائه التاريخي والثقافي وتبعده عن التفكير في إيجاد موقع ضمن الحضارة الإنسانية ، وبالتالي التوقع والانزواء . وهذا ما رفضه طه حسين وناضل من أجل ترسيخه. في المقابل يصبح الوعي بالآخر شرط من شروط التموضع في الحراك العالمي . والوعي بالذات شرط جوهري لإنتاج الهوية. ومن شأن ذلك تعزيز الهوية داخل النشاط الإنساني.

أقام طه حسين صلاته المعرفية بثقافة النموذج الغربي وأسس عليها بحوثه ، لتكوين ثقافة جديدة. فرفض اليقينيّات الثابتة، وأحل بدلا منها إشكالات مُحَصَّبة بالشكوك، فما من يقين إلا كان مسبوقا بشك . على نحو ما ذهب إليه الجاحظ الذي تطعم منهجه بالحجاج والاستدلال وأبو حامد الغزالي (ت: 505هـ) الذي اعتبر الشك طريقا إلى الحق. وديكارت الذي يمثل الشك في مشروعه حالة مؤكدة لوجود الانسان . ويبدو أن كتاب طه حسين " في الشعر الجاهلي" الصادر سنة: 1926 م الذي ألفه إثر عودته من فرنسا إلى مصر كان ممارسة فكرية قائمة على ضرب اليقينيّات، تدعو إلى عدم التسليم دون فحص وتيقن. بتبني الشك بغاية بلوغ درجة اليقين.⁶

وضع طه حسين -من خلال كتابه المذكور- العقل العربي وجها لوجه مع تراثه المقدس ، وجعل هذا الإرث مثار مراجعة عميقة وذلك في حضور الفلسفة الديكارتية التي نادى بتحرير الفكر من كل تصور سابق، لكن فيما يبدو أصبحت المقاربة النقدية التي قدّمها تهمة أكثر منها سجلا. فهذا الكتاب الذي خالفت أطروحاته أفق توقعات القارئ، قاد صاحبه نحو المساءلة القانونية والشعبية. فزعزعة يقينيّات مكتسبات التراث على أشكالها،

لم يكن أمراً هيناً ، ذلك أن فكرة القطيعة معه غير مجدية بل غير ممكنة ، لأنه سيظل حاضراً في بنية الوعي واللاوعي الجمعيين. ولم يلتفت طه حسين وأمثاله من الداعين لهذا الطرح إلى أن الغرب ذاته أعاد بناء وعيه الخاص عبر نقد تراثه، فلا يستقيم الحال في التمثل بغير تتبع مستمر.

والمثاقفة لدى طه حسين، ينبغي أن تنبني على أسس سليمة . فهي تبدأ أولاً بتصفية الرواسب الثقافية السائدة بالثورة عليها، ثم تطوير أدوات منهجية للتدليل على عدم جدواها . بعدها الشروع في تشكيل نماذج ثقافية ذات أصول قديمة مشبعة برؤية معاصرة.

وعليه لقد حاول طه حسين أن يجعل من فعل المثاقفة خطوة نحو تحرير العقل، والذهاب به مباشرة نحو فعل الثقاف الذي يعني بالضرورة البحث عن الفاعلية المحلية من خلال استيعاب الآخر معرفياً. فقابل بين مصر واليونان القديمتين. ولا نتصور أن يكون رهانه الرئيس تقليد الغرب والخضوع لسلطانهم والتخلي عن الخصوصية الثقافية . وإذا كان الأمر كذلك كان الأسهل عليه أن يتبنى المشروع الغربي في صمت وهدوء بعيداً عن النقاشات الحادة التي اهتمت في عقيدته وهويته. لكن يبدو أن قناعاته كانت غير ذلك لهذا أثر الصراع على جميع الجبهات لإيصال فكرته التي تقضي بضرورة التعمق في صلب هذه الثقافة العربية ومعرفة ما يعطلها للخروج من عمق الهوة نحو الأفق.

6. الخاتمة :

- يبدو مما عايناه ونحن ندرس نموذج طه حسين، أن أسئلته النقدية التي تحركت في ضوء المثاقفة ماتزال معلقة في الفراغ ، نتيجة الضغط المؤسسي على كل الحقول المعرفية ، التي يمكن توصيف بنيتها بالتقليد والاجترار ، على الرغم من ثورة منحنيات الأنواع الأدبية والمعرفية.
- يعدّ التنوع الثقافي بين الشعوب انشغالا إنسانيا استوعبه العرب قديماً ، وأدركت أهميته النخبة النقدية في العصر الحديث. ويأتي نموذج طه حسين الفكري ومن خلال ما مرّ معنا ، ليكرّس مسألة إلزامية الثقاف بوصفها الحل الأمثل لصياغة المعرفة الثقافية .
- عزّز مشروع طه حسين واقع المثاقفة الأدبية و مستجداتها. كخيار معرفي يلبي حاجة ثقافية بعد عملية تطويعية للمفاهيم الغربية.
- المثاقفة في منظور طه حسين هي الخروج من مستوى الكمون إلى مستوى الفاعلية . أهم آلياتها الترجمة الواعية و التعدد اللساني وإعمال العقل وتفعيله مع الحفاظ على الخصوصية . وتبني الفلسفة بوصفها علم التفكير .

7. الهوامش :

- ¹ - بونت بيار و إيزر ميشال، معجم الأنتولوجيا و الأنتربولوجيا ، ترجمة :مصباح الصمد ، ط/2 ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، 2011 ، ص.34
- ² - م س ، ص.49.
- ³ - بسمه صقير، الحسن بن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث ، تاريخ الانزال 13 أوت 2019 / تاريخ التصفح :2024/05/20

<https://taqadom.aspdkw.com>

- ⁴ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، لبنان ، ، مركز دراسات الوحدة العربية ،دار الطليعة ،1984 ص. 32
- ⁵ - طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، القاهرة ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ،2014، ص.29.
- ⁶ - طه حسين، في الشعر الجاهلي ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ،1926 ، من ص. 1 إلى ص.40

8. المصادر والمراجع :

- بسمه صقير ، الحسن بن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث ، تاريخ الانزال 13 أوت 2019 / تاريخ التصفح :2024/05/20 <https://taqadom.aspdkw.com>
- بونت بيار و إيزر ميشال، معجم الأنتولوجيا و الأنتربولوجيا ، ترجمة :مصباح الصمد ،2011، ط/2 ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر .
- طه حسين، في الشعر الجاهلي ، القاهرة ،1926 ، مطبعة دار الكتب المصرية .
- طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، القاهرة ، 2014، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة .
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، لبنان ، 1984 ، مركز دراسات الوحدة العربية ،دار الطليعة .